كتاب الملح

قصة

بقلم جورج سالم

الطريق ضيقة وعرة ، والجمال تحاول ان تسرع لتخفف عنها عبأها هذا الثقيل ؛ ومسح الرجل بكمه قطرات العرق التي تملأ وجهه، الا ان قطرتين منها ، اسرعتا الى فمه ، فأحس لهما ملوحة شديدة وكأنها قطعة من هـذا الملح الذي ينقله . والتفت الى خلف وحدج الجمال الاربعة بنظرة ملؤها الحبور ، فستغدو هذه الجمال ، اثر انتهاء الموسم ، ملكاً له : يؤجرها في الشتاء او يعمل عليها بنفسه في نقل التبن او الحطب الى القرى المجاورة . والمسافة بين الملحة والأهراء ، تبدو له الآن طويلة طويلة .. فالشمس صارت قريبة منه ، وأخذ يشعر بكلال في رجليه ، ذلك بأنه بدأ يذرع هذه المسافة منذ انبلاج الفجر ؛ والآن لم يبق للظهر الا القليل .. وحتى الجمال نفسها أخذ نشاطها يفتر ، والأجراس الصغيرة المعلقة برقبتها ، أضحت تدق ببطء ..

وتهافتت قطرات العرق على رقبته ، ومسح وجهه الأسمر ، والتقى لسانه العطش بشفته القاتمة؛ ترى ما ضر لو كان هذا العرق عذباً ؟! انه لا يختلف في كثير عن الماء الذي يشرب ، ولا عن خبز الذرة الذي يأكل . ورمق بنظرة ثانية هذه الجمال وكأنه غير واثق بأن هذه الحيوانات ستكون له..

وأحس في نفسه شيئاً من القلق : فهل يفي المتعهد بما قطعه على نفسه من عهود ؟ وهذا الغم ليس جديداً في نفسه . فمنذ ان تم اتفاقه مع المتعهد، شعر بان شيئاً سيوضع في غير موضعه، كأن احد الفريقين سيخلف وعده، بل أحس بشيء غامض لم يستطع ان يحدده او يعرف كنهه تجاه هذا المتعهد، ومع هذا فالمتعهد مشهور في تلك المنطقة بوفائه ، عمـل له في الاعوام الأخيرة كثير من ابناء القرية، ذلك لأن اكثر من خمس سنين مضت على هذا المتعهد الهرم وهو يقوم بهذا العمل ذاته : يفاصل في صيف كل عام ، عدداً من الرجـال والنساء ليقوموا بتكسير الملح ونقله على ظهور الجمال الى اهرائه .

.. الجمال الاربعة تواصل سيرها متباطئة، ويعود الى ذاكرته خيال من السنة الماضية ، فقد سمع ان ابن قريته «سعيد» عمل مع امرأته طوال الصيف ثم عاد في الشتاء مع جمال اعطيت له لينتفع منها، ونصيب من المال اتاح لنفسه ان يقامر بقسم وافر منه .. وعزم هو ايضاً ان يعمل في الصيف مع امرأته عند هذا المتعهد وفي تلك الارض الرطبة ، رغم البعوض الذي يملأ جوها.. ونظر الى الشمس فرآها قد بلغت وسط السماء وهو لمـا يصل الى الاهراء واحس بالحر تثقل وطأته ويشتد اذاه .فالسماء من فوقه حارة شديـدة الحرارة ، والارض التي يطؤها ملتهبة كالتنور تلذع قدميه الكبيرتين ..

ان هذه النقلة هي الاخيرة ، فسيعود بعدها لتناول غدائه . ثم يقيل فترة في الخيمة التي ضربت قريباً من أرض الملح المبللة. ان امرأته – كبقية النسوة – تكون قد تركت عملها في تكسير الملح لكي تعد له شيئاً من طعام: وابنه «امين» على ذراعها لا يفتأ يئن ويبكي. اما الملح فقد اثر في يديها ، فاصاب اصابعها شيء من اليبوسة، كما شققت المطرقة باطن يدها، تلك المطرقة الباهظة التي تكسر بها قطع الملح . انها تقوم بهذا العمل – مع رجلها – منذ مطلع الفجر ، فتكسر له الملح ، وتملأ عدوله ثم تنثني فتعمل من جديد لتهيىء الملح للنقلة الثانية ، وهي تتابع عملها هذا بصمت ، لا تعرف فيه هوادة او فتوراً ، فالمتعهد الكهل ، بجسمه الغليظ وثوبه الابيض ومظلته الكبيرة يقف فوق رؤوس العاملات كالجلاد متهدداً ، موزعاً اوامر حادة ..

وسمع رنين الاجراس يتسارع ، ورأى الجمال تهرول نحو الاهراء.. وكأن حملها قد ابهظها فسارعت لتتخلص منه.. وصحا الان من شروده، واخذ يعمل في انزال الاحمال ووضعها في اماكنها من هذا الاهراء الفسيح ، ثم بعد ان أفرغ الجعب، امتطى جملاً من هذه الجمال وأم طريق العودة .

إن الارض الملتهبة لم تعد تلسع قدميه؛ أما الجوع، ذلك الوحش المفترس فكان يدفعه الى حث الخطى ، ثم يتراءى له الشتاء والجمال الاربعة والحطب الملتهب، وقليل من المال.. صور تسير تترى أمام عينيه، فيحس بأنه سيلج عتبة حياة أفضل، يقل فيها بكاء ابنه، وتقل فيها عضات الجوع، فيحاول ان يهتف: تبارك الجمال وتبارك الملح. لكن الغم الغامض لا يلبث أن يقترب منه مقيماً على هذه الآمال فيشعر لذلك بانقباض ، ويمرر يده فوق جلد الجمل وتمضي يده في حركتها هذه مداعبة ظهر الجمل ؛ لقد شابه الجمل صبره وشاركه الامه ، ونشأت بينهما صلة عميقة ، فاحس كل منهما بآلام صاحبه .

وغيرت اجراس الجمال ايقاعها لحظة ثم توقفت الجمال فتوقفت. انه سيستسلم بعد الغداء لنوم قصير، في قطعة من الفيء.. وستستريح أنت ايضاً ايها الجمل المتعب.

واستسلم الى النوم ، فسبخ على بساط من العرق المالح غير بعيد من كتل الملح البيضاء، الا ان الاخيلة لم تبرح تتمثل له في قيلولته هذه. فالجمال الاربعة تبدو له الآن وكأنها تحاول ان تهرب منه ليفلت كل منها الى ناحية. ان الحبل الذي كان يربطها جميعاً، اصبح دقيقاً دقيقاً ثم سرعان ما تلاشى وقفز كل جمل قفزة بعيدة فغضب واضطرب واستيقظ قليلاً لينظر اين هو، واين الجمال، فرأى كل شيء صامتاً في مكانه ، فكأن هذه الحرارة الشديدة سمرت الحياة تسميراً. وعاد الى نومه وعادت الاحلام تراود عينيه المطبقتين فرأى نفسه يجري خلف فرس ليمسك بها الا انها تجري وتجري ثم لا يلبث ان يشعر أنه عاجز عن اللحاق بها فيقف متعباً مبهور النفس ويفتح عينيه فجأة . لقد سئم هذه الاحلام واخذ يشعر بألم في معدته فجلس قليلاً ريثما تحيد الشمس عن مكانها ، وبعد مضي فترة ما، نهض فاحس بالألم يزداد الا انه امسك بحبل الجمال وراحت الاجراس ترن كعادتها . لا شك ان وطأة الحر اخف مما كانت عليه قبل الظهر، غير ان الطريق تبدو له الآن مرهقة، ذلك بان هذا الالم كان يفرض عليه ان يتوقف من حين الى آخر ليستجمع شتيت قواه وليمسح عرقاً بارداً كان يمرح على صفحة جبينه . ان الالم ليعصر هذا الوجه الاسمر، فالعينان السوداوان علاهما شيء من الشحوب، والخدان الهزيلان مالا الى الاحمرار ، والانف الاقنى اخذ يردد انفاساً متسارعة ، ولهث الفم الواسع لهاثاً كثيراً.. ان الجمال تؤم الاهراء، والملح يجب ان ينقل، وكل توقف مدعاة للخسارة وافساد لمواعيد التسليم. انه ليشعر بثقل يرزح على كتفيه ، ثم احس ان رجليه لا تقدران على المسير، فشد من عزمه واحس برغبة جامحة في العمل ، وتمثل له الواجب في شخص ابنه يطلب اليه ان يتابع هذه الرحلة ..

الجمال ازالت عنها عبأها ، وعادت ادراجها من حيث اتت، أما هو فان الالم لا يزال يشتد عليه ، وبعد فترة بلغ من الاعياء والالم حداً لم يستطع له تجلداً ، فقعد فوق الارض يستريح قليلاً وترك الجمال تسير وحدها .

لم يعد يتوارد على ذهنه اي خيال او ذكرى ، لقد اضحى يلمح سهولاً جرداء بيضاء خالية من كل حركة. واحس بحاجة ملحة الى النوم، لم يستطع لها قهراً . وتضاءلت الجمال امام بصره حتى غدت كالنمل، وخفت شخص ابنه وانينه، وازداد السهل بياضاً وصمتاً.. وحام حوله بعض الذباب والبعوض واغفى.

امر المتعهد الكهل رجاله ان ينقلوا هذا الجثمان الى مكان بعيد، وأهاب بهم ان اسرعوا فان هذه الطريق لا يمكن الاستغناء عنها، فستمر عليها كثير من الجمال وهي تنقل اكداس الملح الى الاهراء فالموسم خصب. والرجال يتناقصون..

دمشق

جورج سالم